# جدلية المعنى واللفظ عند الجرجاني
# تعددية الدلالة ولا نهائية التأويل

الاستاذ: بن الدين بخولة

كلية الآداب واللغات

جامعة الشلف/الجزائر

يتناول البحث إشكالية مفهومي المعنى والدلالة في النقد العربي القديم ، إذ نقف من خلاله عند صاحب نظرية النظم وكيفية حضورالمعنى والدلالة داخل الكلام، طالما كان البحث يتعلق بمباحث الجملة من حيث قيمتُها الجمالية والدلالية أو بما يعرف بمقتضى الحال الذي يحتل مساحة واسعة في علم البلاغة .

لقد حظيت مسألة" اللفظ والمعنى "باهتمام اللغويين و النقاد حتى شكلت وحدها محورا مهما من محاور النقد العربي القديم؛ ذلك أن" اللفظ رمز للدلالة وقد يكون الرمز دالا على جملة المعنى أوعلى جزء منه أو على لازمة من لوازمه يمكن أن يستدل به على المعنى نفسه، وقد تكون الألفاظ بتركيبها دالة على هذه اللوازم وقد تؤدي هذه الألفاظ[١] وظيفة أخرى بصورها المتعددة وهي هذه الاشتقاقات الكثيرة التي يمكن أن تصاغ من مادة لغوية واحدة

إن فهم العرب لقيمة اللفظ جزء من سليقتهم وفطرتهم كما قال ابن جني" :اعلم انه لما كانت الألفاظ للمعاني أزمة، وعليها أدلة، وإليها موصّلة، وعلى المراد منها محصلة، عنيت العرب بها، فأولتها صدرا صالحا من تثقيفها وإصلاحها.[٢]

وأن إدراكهم للبعد الدلالي للفظ ناتج عن فهمهم لطبيعة وجود اللفظ داخل البناءين الجُمَلي واللغوي، " معا، وليس أدل على ذلك من أن الدرسات العربية القديمة باختلاف موضوعاتها أدبية، دينية، اجتماعية ..تطورت نوعيا في فهم جوهر اللغة؛ إذ تطلبت طبيعة هذه الدراسات أن يعاد النظر في دراسة اللغة وفق حالاتها من نشأة، و تطوردلالات، و ما يرتبط بها من تحولات على المستوى الاجتماعي.

إذا عدنا إلى تعريفات المعنى عند علماء الإعجاز ، فإننا نخلص لنتيجة لا تخرج عن إطارها العام عن معنى الإفادة في الكلام وربما كان هذا ناتجا عن تأثر اللاحق بالسابق إلا أن هذا لا يعني عدم

التجديد والتوسيع من دلالة "المعنى" يصرح عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز بقوله:"..هذا هوالسبيل فلست بواجد شيئا يرجع صوابه ‘ن كان صوابا، وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو، قد أصيب به موضعه... فلا ترى كلاما قد وُصف بصحة نظم أو فساده، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة، وذلك الفساد إلى معاني النحو وأحكامه."[٣] وعليه، فعلم المعاني عند الجرجاني تقتسمه أكثر من مهمة، فعدا كونه تلك الأصول والقواعد التي تحرز الكلام من الخطأ، وذلك بتتبع الجزئيات، التي يمكن أن نسميها مباني الكلام للوصول إلى الغاية، وهي تلك المعاني الناشئة عنها، وربما هذا ما جعل بعض الدارسين المحدثين يرون أن علم المعاني، اتجه اتجاها معاكسا لعلم النحو ، فبدأ من منطلق المعنى باحثا له عن المبنى، وذلك حسب قولهم :" لكل مقام مقال ، فالمعنى هو الذي يقتضي الذكرأوالحذف، أو التقديم، أو التأخير، الفصل أوالوصل الخبرأو الإنشاء."[٤].

عمد عبد القاهر الجرجانى إلى دراسة المعاني دراسة شاملة فأشارإلى المعانى المفردة وعلاقتها بالألفاظ أوما يعرف فى علم اللغة الحديث بفكرة العلامة أو الدال والمدلول كما أشارالجرجانى إلى أهمية المعنى الدلالى للتركيب أوالنص، والأهم عند عبد القاهرالجرجانى عندما يتحدث عن المعانى في كتابه هونوع المعانى النحوية أوالوظيفية التى ترتكزعليها فكرة النظم عنده، وهذا لا يعنى أنه أفرد كل كتابه للمعنى الوظيفى وإنما استحوذت فكرة المعانى الوظيفية على جل اهتمام عبد القاهر لأنها مرتكز رئيس ترتكز عليه فكرة النظم ، يقول الجرجانى " ذلك لأنه أمر ضرورى لا يمكن الخروج منه "[٥] .

وقد أورد الجرجانى نصا يشتمل على أنواع المعنى الثلاثة المعجمى والدلالى والوظيفى يقول فيه " ينبغى أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخباراً وأمراً ونهياً واستخباراً وتعجباً (المعنى المعجمي) وتؤدى في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة (المعنى الوظيفي) هل يتصور أن يكون بين اللفظين تفاضل فى الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له من صاحبتها على ماهى موسومة به ( المعنى الدلالى) "[٦] ، وقد قسم الجرجانى المعنى الدلالى قسمين فقال " الكلام (يقصد المعنى الدلالى) على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلا بالخروج على الحقيقة فقلت خرج زيد، وبالانطلاق عن عمروفقلت عمرومنطلق، وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه فى اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ومدارهذا الأمرعلى الكناية والاستعارة والتمثيل وإذ قد عرفت هذه الجملة فهاهنا عبارة

مختصرة وهى أن تقول المعنى تعنى بالمعنى المفهوم من ظاهراللفظ والذى تصل إليه بغيرواسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضى بك ذلك المعنى إلى معنى آخر"[٧] .

لم يكتف عبد القاهر الجرجانى بدلالات الصياغة اللغوية وإنما بحث فيما وراء هذه الدلالات فيما سماه المعنى ومعنى المعنى ، وقد ربط عبد القاهر الجرجانى بين المعانى المعجمية والمعانى الوظيفية ربطا رائعا يمكن من خلاله القول إن المعنى الدلالى ناتج عن المعانى المعجمية والمعانى الوظيفية وفكرة المقام.

والنحوعند عبد القاهرالجرجاني ليس مجرد أواخرالكلم ، وإنما العلاقات والروابط بين الكلم وما يتولد عنها من معان. وقد حشد الكثير من الأمثلة والشواهد ليدلل على هذه النظرية ويدافع عنها،يقول:" لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أنّ ينظر في وجوه كل باب وفروقه فينظر في الخبر الى الوجوه التي في قولك:"زيد منطلق وزيد ينطلق وينطلق زيد ومنطلق زيد ، واعلم انك إذا قلت (زيد المنطلق كان كلامك مع من لم يعلم أن انطلاقا كان لا من زيد ولا من عمرو ، فأنت تفيد من ذلك ابتدأ ، وإذا قلت:"زيد المنطلق" كان كلامك مع من عرف أن انطلاقا كان إما من زيد أو من عمرو، فأنت تعلمه أنه كان من زيد دون غيره "[٨]

فعبد القاهرلا يريد الحركات الظاهرة، إنما يريد معنى أعمق هوالنظام النحوي للكلام[٩] وقد رد على من سخر من هذه النظرة ولكنهم قالوا: ( لو كان النظم الذي كان في معاني النحو، لكان البدوي الذي لم يسمع بالنحو، لا يتأتى له نظم الكلام، وإنا لنراه يأتي في كلامه بنظم الكلام لا يحسنه المتقدم في علم النحو .[١٠]

انتبه الجرجاني إلى قيمة السياق في رفد الدلالة وأرجع المزية إلى علاقة الكلمة بما يجاورها يقول:(اعلم أنّ ههنا أصلاً أنت ترى الناس فيه في صورة من يعرف من جانب وينكر من آخر، وهو أنّ الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة، لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينهما فوائد. وهذا علم شريف، وأصل عظيم)[١١]

فالجرجاني في نظره للسياق يؤكد أنّ لامعنى لتفاصيل الكلمات من غيرالنظر إلى السياق الذي وردت فيه. وقد مثّل ذلك بقوله:"ولو عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدا كيف جاء واتفق وأبطل نضده ونظامه الذي عليه بنى وفيه افرغ المعنى وأجرى، وغير ترتيبه الذي أفاد ما أفاد فقيل:" قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل،" ومنزل قفا ذكرى من نبك حبيبب" خرج عن كمال البيان إلى مجال الهذيان وسقطت نسبته من صاحبه"[١٢].

فقد فرق بين المعنى المعجمي للفظ وما يدل عليه الكلام بدلالة اللفظ وحده وبين المعنى النحوي الذي يتحقق من خلال فهم الكلام بضم بعضه إلى بعض بحسب العلاقات النحوية بين الألفاظ ، فيظهر المعنى بوساطة المستوى النحوي للغة

فالألفاظ في وجودها اللغوي لا قيمة لها في نفسها من حيث هي، ومن ثم لا تكون مناط فضيلة، ولا تكون قابلة لاستحسان أو استهجان، فكل لفظ دال على معنى، له مقامه الذي يحسن فيه، ومقامه الذي يقبح فيه، وشأن اللفظ في عالم البيان شأن المرء في عالم الإنسان، قيمته في سياقه وعلاقاته الاجتماعية بإخوانه).[١٣]

إن دراسة الأنماط النحوية للجملة خارج السياق الكلامي غير كافية لتبيان كيف تؤدي اللغة وظيفة الاتصال، ويعني ذلك أنه يجب دراسة كيف تحمل الأنماط النحوية للجملة فائدة بالنسبة للسامع (المخاطَب) تتجلى في حصوله على شيء جديد حين يدرك غرض المتكلم من كلامه، ويتم ذلك بربط دراسة الأنماط النحوية للجملة بقضية الإبلاغ حسب المقام أو الموقف الكلامي.

وفهم الجرجاني للفظ ساقه إلى فهم حصيف للنظم حيث "الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف[١٤] معانيها في أنفسها ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها من فوائد ولما كان اللفظ المفرد له مزية توجيه السياق بما يوحيه من دلالة وجب حسن اختيار كلمة دون أخرى، يقول[١٥]" الجرجاني: "ينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف وقبل أن تصير إلى الصورة التي تكون بها الكلم وانطلاقا من مبدأ الاختيار هذا تؤدي الكلمة "في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم[١٦] " كلمة إلى كلمة و بناء لفظة على لفظة إن فهم الجرجاني لمسألة الاختيار والنظم هو جوهر علم الدلالة الحديث ف "من المعروف أن علم الدلالة يعني لدى اللغويين المحدثين التأكيد على استخدام الكلمات من حيث وظيفتها وكيف تتحرك تلك الوظيفة في دائرة المعنى وتوصيله. ويتم ذلك بواسطة الترابط بين شيء ما، وبين علامة له تتلازم معه، ومن ثم تكون الكلمات كما يبالغ أحيانا[١٧] " لا تحمل معاني في ذاتها و إنما تتولد معانيها على حسب استعمالاتها إن رؤية الجرجاني للفظ بوصفه وحدة دلالية يتأسس النص على مبدأ اختيارها والمفاضلة بينها لتتحقق خصوصية الأداء اللغوي، جعله يصل إلى مفهوم "المعنى" و"معنى المعنى"، هذا المفهوم الذي تبناه في العهد الحديث لعلم اللغة العالمان أوجدان و ريتشاردز اللذان اشتركا في تأليف كتابهما الشهير "معنى المعنى".

إذا نظرنا في موروثنا النقدي القديم ، فإننا نجد أن الأصوليين كانوا أول من عرض لمفهوم الدلالة، في بحثهم حول وضع الألفاظ لمعانيها، والاصوليون؛ إذ يعرضون لهذا القضية اللغوية " ينظرون إلى انه إذا ما كان الوضع للشيء فرع من تصوره، فإن فهم الموضوع يحتاج إلى إدراك ما

وُضع له، بمعنى أن العلم بالمدلول يتحقق بعد سماع الدال على العلم بالمواضعة عند القوم الناطقين بالدوال، وطبعا هذا بخلاف الدلالة العقلية والطبيعية، التي لا تختلف بين امَّة وأخرى في الغالب، ومن ثم كانت عناية الأصوليين، وفيما بعد البلاغيين بالدلالة اللفظية الوضعية ، التي اهتموا بها في مصنفاتهم أيَّما اهتمام ، ومفهوم الدلالة اللفظية الوضعية عندهم هي كون اللفظ؛ بحيث إذا أرسل علَم منه المعنى للعلم بوضع ذلك اللفظ لهذا المعنى."(١٨)

وأول ما يسترعي الانتباه في التعريف، هو استخدام مصطلح المعنى للتعبير عن المدلول، ومن هنا نفهم انشغال مبحث الدلالة عندهم بمعان الدوال ، وكيفية تحقق هذه الإفادة في الكلام، خاصة أن مباحثهم لا تشمل المفرد فحسب بل تشمل المركب أيضا، والأصوليون يؤكدون على الألفاظ المفردة ، ليس الغرض من وراء هذه الدلالة الوضعية إفادة المعاني المركبة بتركيب هذه المفردات، باعتباره من عناصر التركيب(١٩)

ومن هنا نخرج بنتيجة اتساع نطاق حصول الدلالة من المفرد إلى التركيب، مما يعني أن الدلالة عند الأصوليين والبلاغيين العرب، قد استطاعت أن تخرج من بوتقة الكلمة المفردة لتشمل التركيب، والبحث في إفادة هذا التركيب، وهذا ما نجده قد استقر فيما بعد عند عبد القاهر الجرجاني في دلائله، حيث يقول:" الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسنا ، ولكن لأنَّ يضم بعضها بعضا إلى بعض، فيعرف فيما بينها فوائد، وهذا علم شريف، وأصل عظيم."(٢٠).مما يعني تطور مجال الدلالة، بين الأصوليين الأوائل والمتأخرين من البلاغيين. و كلام الجرجاني يدل على أن البحث في دلالة الألفاظ المفردة، ما هو إلا سبيل للوصول إلى دلالة التركيب عن طريق تضام هذه الألفاظ مع بعضها البعض ، فالعناية بالمفردات في الحقيقة، وإنَّما هي باعتبارها لبنات المعنى التركيبي.

انطلق النظراللغوي إلى الدلالة من اعتبار أنَّ دراسة بنية العلامة على مستوى الأصوات، تتم على مستوى التغيرات الصرفية، ثم على مستوى النظم، لا تكتمل إلا في ضوء النظرإلى حركة تلك البنى، وهذه الحركات يظهر تماتزجها (٢١) في جانبين من جوانب الاستعمال، هما معاني المفردات ودلالة التراكيب.

فالجملة الأخيرة تربط المعنى بالمفردة، والدلالة بالتركيب، وهو منحى يميل إليه الكثيرمن الدراسين، بل ويعتمدون أساسا في التفريق بين ( المعنى)و(الدلالة)، ويكاد أكثرهم يجمعون على انصراف لفظ( المعنى) إلى اللفظ المفرد، ولفظ)الدلالة) إلى التركيب، على تفاوت واضح بينهم، في تحديد المفهومين، على وجه الدقة ، وتجدرالإشارة إلى اتجاه النقاد المعاصرين إلى إلصاق مفهوم(

الدلالة) بما يضيفه المتلقي إلى التركيب جملة وعبارة ونصا ونصوصا من المعانين والمعنى على كل توجيه خاص، والدلالة أعم(٢٢).

يعد الجرجاني في نظريته اللغوية ، من أنصارالالتحام بين اللفظ ومعناه، فقد أشار إلى شكل عملية الفكر اللغوي التي تتم في وقت واحد، يًطلب المعنى، فتجيء الألفاظ بحسب هذا الطلب، أو ما يعرف بالصياغة وهذا ما تسعى إليه في الحقيقة، جل المدارس النقدية الحديثة ، التي تحاول أن تجعل من النص/ وحدة شاملة لأجزاء متفرقة، وعلى رأس هذه الأجزاء البنية والدلالة، داخل النص، التي تتفرع هي الأخرى إلى تفريعات وتبويبات عدة، بحسب التيار النقدي الذي يقودها من شكلا نية أو بنيوية أو تفكيكية، أو غيرها من المذاهب، فأصبح همُّ الدارسين والباحثين هو لمُّ شتات النص، والبدء بعناصره الأولية، كخطوة أولى، وهو التحام المعنى بالمبنى، ليصل النص إلى انتهائه وكماله؛"ويتضح مما تورده المعاجم القديمة والحديثة ، أنَّ الدلالة الحديثة لمصطلح النص، لم تكن غائبة كليا في المعجم العربي وهي تلتقي مع ولادة المصطلح في اللاتينية، التي تشير إلى معنى بلوغ الغاية، والاكتمال في التصنع"(٢٣)

لقد أفاض الجرجاني في سّوِق الأدلة التي تبين أن النظم ومعاني النحو لا يمكن أن يفهم أحدها دون الأخر؛ "فسبيل المعاني كسبيل الأصبغة وألا حجار الملونة التي تعمل منها الصورة والنفس، ولا معنى للنقش والتصوير دون ايحاءات، وتحسن الصورة بما تملك من مقومات فنية"(٢٤).

وتكلم عبد القاهر ــ أيضا ــ على ما يسمّى بـ(معنى المعنى)، أو ما يسمّى اليوم بـ( The meaning of meaning)، إذ يقول: ( أولا ترى أنّك إذا قلت: هو كثيررماد القدر، أوقلت: طويل النجاد، أوقلت في المرأة: نؤوم الضحى، فإنّك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ ولكن يدلّ اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانيا هو غرضك كمعرفتك من كثير رماد القدر أنَّه مضياف، ومن طويل النجاد أنّه طويل القامة، ومن نؤوم الضحى في المرأة أنّها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها..) ، أي أنَّ في هذه الجمل معنيين: المعنى الأولي الذي تستدل عليه من ظاهراللفظ، والمعنى الثانوي الذي تستدل عليه بعقلك، وهو ما يسمّى بـ(معنى المعنى). ثم يلخص لنا عبد القاهر هذه الفكرة بقوله: (وإذ قد عرفت هذه الجملة فهاهنا عبارة مختصرة وهي أن تقول: المعنى ومعنى المعنى، تعني بالمعنى: المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى: أن تعقل من اللفظ معنى ثمَّ يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر كالذي فسرت لك)(٢٥). من هنا نرى أنَّ المعاني الإضافية عند عبد القاهر هي أساس جمال الكلام، وإليها ترجع الفضيلة. وهذه الفكرة لم يلتفت إليها أحد من النقاد

العرب السابقين، وتناولها بالبحث النقاد الغربيون وسموها بـ(معنى المعنى) أيضا، أو( The meaning of meaning).

وفعلا فقد استطاع عبد القاهربنظريته في المعنى ومعنى المعنى أن يسبق النقد الحديث بأشواط طويلة، ولا احد ينكر له فضل السبق في هذا المجال، فعبد القاهر لم يغفل في بحثه المعاني الإضافية، وقيمة دلالتها الجمالية في النص الأدبي، ليولد منها وحدة العمل الفني بشكل عام عن طريق ربط المضامين والأجزاء، والأشكال بأربطة وثيقة تعبرعن الوحدة والالتحام.(٢٦)

فانطلاقاً مما سلف، يمكن لعبد القاهر أن يدلّل على الأصل اللغوي لنظريته في النظم، ذلك أن "الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائد" (٢٧)فلا يترتب على الألفاظ إفادة "حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب"(٢٨).

وإذا كان هذا عامّاً في كل استعمال للغة لمجرد تحقيق الاتصال بين المتخاطبين، فإن الأمرفي الكلام الفني أخص. من هنا لا يكون لمعاني الألفاظ المفردة أي حظ من الوصف بالبلاغة ذلك أن "ليس لنا إذا نحن تكلمنا في البلاغة والفصاحة مع معاني الكلم المفردة شغل ولا هي منا بسبيل، وإنما نعمد إلى الأحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب"(٢٩).ففي الحذف لا يعبر الجرجاني عن تناول جديد للغة، ولا يعرض لفعاليتها أو لمغزى النشاط النحوي فيها، وإنَّما يظل اهتمامه فيها يعاني من سيطرة الدلالات الموجهة الثابتة، فهو لايتناول من تأثير السياق في جزء من أجزائه إلا القليل الواضح.(٣٠) وربما تحدث الدكتور تامر سلوم عن الحذف لما يحتاجه الحذف من إدراك الفاعلية السياقية للكلام، ومن ثم الوصول إلى القيمة الجمالية التي حققها هذا الحذف:" صحيح أنَّ الجرجاني يشير إلى الأثر الذي يعزى إلى الحذف، ولكنه لا يربطه بوجدانية السياق، وإنَّما يرتد به إلى اعتبارات نحوية( حذف المبتدأ، حذف المفعول به).(٣١)

وأشدُّ ما نلاحظ قيمة اهتمام الجرجاني بمباحث النحو وتفريعاته، في أثناء حديثه عن الوصل والوصل،فقد عده سبيلا إلى معرفة سائر معاني البلاغة يقول: "وإنه لا يكمل الإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معاني البلاغة"(٣٢) وفصحاء العرب وبلغاؤهم كانوا حريصين كل الحرص على مراعاة مواطن الفصل والوصل في كلامهم وخطبهم، وينصحون بذلك بقول أبو العباس السفاح لكاتبه:"قف عند مقاطع الكلام وحدوده وإياك أن تخلط المرعى بالمهمل"(٣٣) ويقول معاوية: "يا أشدق قم عند قروم العرب وجحاجحها فسل لسانك وجل في ميادين البلاغة وليكن لمقاطع الكلام منك على بال فإني شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى على علي ابن أبي طالب رضي الله عنه كتابا وكان

يتفقد مقاطع الكلام.[٣٤]فقد ناقش هذه الظاهرة البلاغية بالوقوف مطولا على العوامل النحوية الفاعلة فيها ، كما تحدث عن أشكال كثيرة من العلاقات بين الجمل، إلا أننا نجهل قيمة هذه العلاقات الدلالية التي تحيلنا فيها على أشياء واضحة عدا بعض الإشارات العابرة ، إلا أنَّه نبَّه في بداية حديثه عن الفصل والوصل لصعوبة الوصول إلى حقائق هذا الباب ، لما يكتنفه من صعوبة ودقة:" إنَّ الفصل والوصل من أسرار البلاغة ، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلص والأقوام الذين طبعوا على البلاغة، وأتوا فنا من المعرفة في ذوق الكلام"[٣٥].

فكلام الجرجاني يجعل القارئ يربط بين الجمالية الذوقية وبين معاني النحو المستفادة من الكلام ، كون الجرجاني يجعل من معاني النحو شغله الشاغل، في أغلب الحالات لتقصي جمالية النص ، رغم أنَّه لا يوضح معالم هذه الجمالية.

فالمعنى اللغوي أوالنحوي، من حيث هو نشاط ذو خصائص استنطاقية تلون استجاباتنا وتحدد تأثيرنا، وتوجهه أمر لم يفطن عليه الجرجاني ولم يأخذ منه عناء[٣٦]

إن التقاء الفصاحة والبلاغة وانتقاء الألفاظ والتحامها بالمعنى كلها مزايا تعود إلى المعاني فليس تخير اللفظ مستقلا عن المعنى يذوقنا جمال التركيب ولا كوننا نولي الاهتمام بالمعنى بغض النظر عن الصياغة، لكن مزية النظم هي التحام كل من اللفظ والمعنى داخل التركيب، وبالتالي القضاء على هذه الثنائية هو مصدر الجمال.

فالمعنى عند الجرجاني هوذلك التصور في اللفظ الذي يجعله يبدو في هيئته ويُكون الدلالة المعنوية، فلا يكون كناية وتمثيلا به ولا استعارة، بحيث تكون دلالته غرضها مجرد اللفظ وفي تأدية وظيفته الإشارية وهو بما عرف به اللفظ في موضعه الأول، فهو "المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه تغير واسطة." [٣٧] واللفظ مادة الأدب، لكن يتدخل النظم في تلاحم الدلالات لخلق صورة أو معنى على مصور فالمعنى هو ما وجد قبل التعبير، وبالتالي الغرض الذي يعتقد به المتكلم وهو متعدد الدلالات، وقد حصره عبد القاهر الجرجاني بشكل عام في مجموع دلالات الألفاظ في سياق بحيث لا يكون قاصرا في تأدية واجبه نحو الفكرة والمضمون الفلسفي بل يتعدى إلى الخلق الذي يخرج به التركيب من إحساس وصورة وصوت وفكرة و"كل ما ينتج عن سياق من فكر وإحساس وصورة وصوت." [٣٨]

والمعنى الذي تعرض إليه الجرجاني من دلالات الألفاظ المفردة يعتبر لبنة لما شكله الفكرالمتقدم الحالي وهذا ما عرف بـ "سمانتيك" أو علم الدلالة والذي اعتبر فرعا من علوم البلاغة

فهو يدرس اللفظة المفردة من داخل دراسة المعنى فيرى في المعاني أنفس الألفاظ والتي تجلت في المعارض والوشي والحلي وأشباه ذلك.

جعل الجرجاني من المعنى قالبا فنيا، لكن بدخوله في النظم ودخول وسائل التصوير الفني يتجاوز المعنى (الدلالة الأولية) فهو يودي به إلى معنى آخر الذي يتجسد في الصور البلاغية. الألفاظ تشكل حلية وزينة فقولنا "رأيت أسدا"، وتاليا لم يرد من خلال قوله أنه رأى أسداً في الحقيقة فنعلم أنه تشبيه وأنه بالغ فجعل الذي رآه اعتمد على ملابسة بينه وبين الأسد ألا وهي الشجاعة، وبالتالي نقل اللفظ من موضعه لنستعمله في غير ما وضع له وهذه الصفة التي وظف فيا للمعنى لا للفظ فمن خلال تأويل المعنى الأول انتقلنا بذلك إلى المستوى الثاني ألا وهو المعنى الثاني وهو (معنى المعنى).

إن الأساس الذي بنيت عليه الصياغة أو السياق هو التحام هذه التعابير المجازية في صياغة نحوية صحيحة بحيث تشكل هذه المعاني البلاغية من استعارة وتمثيل وتشبيه جزءا لا ينفصل عن النظم في تطبيق إليه فهي سبب في النظم وينشأ عنها. "فالاستعارة والتشبيه والكناية والمحسنات المعنوية واللفظية الجارية في السياق وغير النابية عنه، وحسنها رجع إلى مراعاتها أوجه الجمال فيها تصوير المعنى" [١٣]. فكل من هذه الاستعارات والتشبيهات والكنايات والمحسنات تلعب دورا في النظم وكلها تتميز عن طرق مرحلة تجاوز اللفظ "فإنك تعرف المعنى فيها عن طريق المعقول دون طريق اللفظ." [٣٩] ، يتم معنى المعنى عند الجرجاني بتجاوز دلالة اللفظ الظاهر إلى ما يحمله من دلالات في مرحلة يتم فيها تدخل العقل فقول: "أنت بحر" فالقصد ليس البحر وهذا ما سمي بالمعنى السطحي وإنما خرجت إلى معنى بلغ فيه جمال العظم من خلال تصوير كرمه الذي لا ينتهي بالبحر.

نظرية معنى المعنى تلتمس في تركيب الكلام وسياقاته مما تخدمه للمضمون ودلالة اللفظ الحقيقة فهو معجب بالسياق وتأويل المعنى ونجده يميل إلى الصدق المتمثل في المعاني العقلية التي يرتضيها العقل وهذه الأشياء يتصف بها الحديث النبوي فالخلق الفني جسده الرسول صلى الله عليه وسلم للتعبير الصادق عن التجارب التي تقتضيها الحياة البشرية

أما تجسيد الشاعر للصور المجازية فأساسه الوهم والخيال التي يتم من خلالها إعادة تشكيل ما هومدرك ويعتمد في ذلك على قوة الإحساس، وهذا ما يسميه الجرجاني في كتابة *أسرار البلاغة*

بمعنى المعنى ويصرف من خلالها إلى دراسة قائمة على أسس نفسية وذوقية وجمالية عقلانية [٤٠]، فمثلا قول ابن الرومي هاجيا

الحظُّ أَعْمَى لو لا ذَاكَ لم نره ----- لِلْبُحترِي بِلا عَقْلٍ ولا أَدَب!

قُبْحًا لِأَشياءٍ يَأْتي البحتري بها ----- من شعره الغَثِّ بَعْدَ الكَدِّ والتَّعَبِ

كَأَنَّهاَ حينَ يُصْغِي السَّامِعونَ لَهَا ----- مِمَن يُميزُ بَيْنَ اللَّنْبِعِ والغَرَبِ

رُقَى العَقارِبِ، أو هُذْرُ البناةِ إذَا ----- أَضْحَوا عَلى شَعَثِ الجُدْرانِ فِي صَخَبِ

وقَدْ يجيء بِخَلْطٍ فالنُّحَاسُ لَه ----- وللأَوائِلِ مَا فِيه مِن الذَّهَبِ

يُسِيء عَفًا نْ أَكَدْتَ وَسَائِلَهُ ----- أَجَادَ لِصًا شديدَ البأسِ والكَلَبِ

عَبدٌ يُغيرُ عَلَى المَوْتَى فَيَسْلُبهم ----- حُرَّ الكلامِ بجيشٍ غير ذِي لجب

ما إِنْ تَزَالُ تَرَاه لابِسًا حُلَلاً أَ----- سَلابَ قَومٍ مَضَوا في سَالفِ الحِقَبِ

شِعْرٌ يُغِيُر عَليه بَاسِلاً بَطَلاً ----- ويَنْشُدُ النَّاسَ إيَّاه عَلى رقب

يَقولُ مُسْتَمِعُوهُ الجَاهِلونَ به ----- أَحْسَنْتَ يَا أَشْعَرَ الحُضَّار والغُيب[٤١]

من خلال أبيات ابن الرومي لا يمكن لنا أن نتذوق هذه الأبيات بغض النظر عن الدلالات التي جسدت في التشبيهات الواقعة في هذه الأبيات وما أولته المعاني الثانوية في خدمة سحر الكلام فيقول الجرجاني في ذلك: "وينبغي أن تعلم أن باب التشبيهات قد حضي من هذه الطريقة بضرب من السحر، لا تأتي الصفة على غرابية، ولا يبلغ البيان كله ما ناله من اللطف والطرف، فإنه قد بلغ حدا يرد المعروف في طباع الغزل." [٤٢]

لقد انتقل من تفاوت الدلالات إلى مرحلة لم ينتبه إليها أحد قبله من النقاد وقد أسعفته نظرية الجاحظ في المعاني المطروحة، على ذلك فقد خيل إليه أن الناس حين أساؤوا فهم نظرية الجاحظ لم يلحظوا تفاوت الدلالات الناجم عن طريق الصياغة فقولك: خرج زيد، "قول نصل منه إلى المقصود بدلالة اللفظ وحده ولكنك حين تقول: هو كثير الرماد القدر، فإنك تطرح أولا دلالة أولية، تنتقل منها

إلى دلالة ثانوية تصل بها إلى غرض جديد، فمرحلة معنى المعنى هي المستوى الفني من الكناية والاستعارة والتشبيه وفي هذه المرحلة يكون التفاوت أيضا في الصورة أو الصياغة لأنه يتفاوت في الدلالة المعنوية... ومن مرحلة المعنى يتكون علم المعاني، ومن مرحلة معنى المعنى، يجيء على البيان.(٤٣)

استطاع عبد القاهر الجرجاني أن يحدد الأصول العامة التي تنص عليها نظرية معنى المعنى، فقد تميز عمن سواه وحافظ على عظمة في الأسرار والدلائل معا، هذه الأصول التي تعمل على التوحيد بين اللفظ والمعنى والتي يؤدي حسن السياق فهي الاستعارة والكناية والمجاز والتمثيل والتشبيه مضيفا إليها معاني النحو جاءت صورة مشتملة لتفاعل حسي قائم بين هذه الأركان فكانت وحيا من النظم وكان النظم هو الإطار الذي أبرزها فالحسن للنظم من حيث تصوير المعنى وخلق معنى المعنى وهذا هوسرالبروتوكول الدلالي عند عبد القاهر الجرجاني.

## المصادر والمراجع


١ــ أسرار البلاغة ، عبد القاهر بن عبدالرحمن الجرجاني ،تحقيق محمد رشيد رضا ، الطبعة السادسة ، القاهرة ١٩٥٩،

٢ــ الأصول، دراسة ابستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي، د/ تمام حسان، دار الثقافة، ط١، ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م.

٣ــ الإيضاح – للقزويني – تحقيق وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد – مطبعة السنة المحمدية

٣ــ البحث الأسلوبي معاصرة وتراث د. رجاء عيد.

٤ــ البلاغة تطور وتاريخ ،شوقي ضيف ، دار المعارف، الطبعة الثامنة

٥ ــ الخصائص، ابن جني،تحقيق : محمد على النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٦م

٦ــ *الصورة البلاغية* أحمد علي دهمان، عند عبد القاهر الجرجاني منهجا و تطبيقا – دار طلاس للدراسات و الترجمة و النشر – دمشق –ط١-١٩٨٦

٧ــ اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية المصطلح في الخطاب النقدي الحديث، فاضل ثامر المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤،

٨ــ المدخل إلى دراسة البلاغة العربية السيد أحمد خليل، دار النهضة العربة، بيروت، ١٩٦٨

٩ــ المشاكلة والاختلاف، قراءة في النظرية النقدية العربية، وبحث في الشبيه المختلف د/عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي بيروت، ١٩٩٤.

١٠ــ دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد رشيد رضا. دارالمعرفة. بيروت. لبنان. ١٤٠٢ ه – ١٩٨١ م
١١ــ دلالة الألفاظ عند الأصوليين، دراسة بيانية ناقدة، د محمود ،،توفيق محمد سعد ، مطبعة الأمانة مصر/ ط١،
١٢ــ ديوان ابن الرومي. ديوانه. شرح مجيد الأطرش. المجلد الأول. (بيروت :دار الجيل، ١٩٩٨)، ٣٩٢-٣٩٣
١٣ــ كتاب الصناعتين – لأبي هلال العسكري – الطبعة الأولى عيسى البابي الحلبي ١٣٧١ – ١٩٥٢
١٤ــ موجز تاريخ علم اللغة في الغرب تر، د/أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، ع٢٢٧، الكويت نوفمبر، ١٩٩٧،
١٥ــ نظرية اللغة والجمال في النقد العربي،د/ تامر سلوم، ط١، دار الحوار للنشر والتوزيع،سوريا اللاذقية.
١٦ــ نظرية النظم وقراءة الشعر عند عبد القاهر الجرجاني،: محمود توفيق محمد سعد، مصدر الكتاب موقع اتحاد الكتاب العرب
١٧ــ نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، وليد محمد مراد دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٣،، ص،٢٨
١٨ــ نظرية النظم، وليد محمد مراد، دار الفكر – دمشق – الطبعة الأولى – ١٩٨٣.

## الهوامش:

(١) د. السيد أحمد خليل. المدخل إلى دراسة البلاغة العربية. دار النهضة العربة، بيروت، ١٩٦٨ ص: ٨٩
(٢) ابن جني. الخصائص. : محمد على النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٦م ، ج: ١. ص: ٣١
(٣) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد رشيد رضا. دارالمعرفة. بيروت. لبنان. ١٤٠٢ هـ – ١٩٨١ م ص، ٣٩.
(٤) الأصول، دراسة ابستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي، د/ تمام حسان، دار الثقافة، ط١، ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م. ص، ٣٤٨
(٥) دلائل الإعجاز، ٢٥٦ .
(٦) المصدر نفسه، ٤٧ .
(٧) المصدر نفسه ، ١٧٧ .
(٨) . دلائل الاعجاز٧٤
(٩) البلاغة تطوروتاريخ ،شوقي ضيف ، دار المعارف، الطبعة الثامنة ، ص، ص، ١١٧، ١١٨
(١٠) الإمام عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ت.محمد رشيد رضا، ١٩٦٠، ص، ٢٦٦
(١١) دلائل الإعجاز( ص٣٥٣).
(١٢) أسرارالبلاغة ، عبد القاهر بن عبدالرحمن الجرجاني ،تحقيق محمد رشيد رضا ، الطبعة السادسة ، القـاهرة ١٩٥٩، ص ٤

(١٣) نظرية النظم وقراءة الشعر عند عبد القاهر الجرجاني،: محمود توفيق محمد سعد، مصدر الكتاب موقع اتحاد الكتاب العرب

(١٤) الجرجاني ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد – (ت: ٤٧١ ه). دلائل الإعجاز. تحقيق: محمد رشيد رضا. دارالمعرفة. بيروت. لبنان. ١٤٠٢ ه – ١٩٨١ م. ص، ٣٥

(١٥) المصدر نفسه.ص: ٤١

(١٦) الجرجاني ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد – (ت: ٤٧١ ه). دلائل الإعجاز. تحقيق: محمد رشيد رضا. دارالمعرفة. بيروت. لبنان. ١٤٠٢ ه – ١٩٨١ م: ٨٧

(١٧) د. رجاء عيد. البحث الأسلوبي معاصرة وتراث. مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، ١٩٩٤ ص: ٦

(١٨) دلالة الألفاظ عند الأصوليين، دراسة بيانية ناقدة، د محمود ،،توفيق محمد سعد ، مطبعة الأمانة مصر/ ط١، ص، ١٥.

(١٩) دلالة الألفاظ عند الأصوليين، دراسة بيانية ناقدة، د محمود ،،توفيق محمد سعد ، مطبعة الأمانة مصر/ ط١، ص، ، ٣٥٠

(٢٠) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، صن ٣٥٠.

(٢١) موجز تاريخ علم اللغة في الغرب تر، د/أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، ع٢٢٧، الكويت نوفمبر، ١٩٩٧، ص، ٣٤٢.

(٢٢) المشاكلة والاختلاف، د/عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي بيروت، ، ١٩٩٤، ص، ٤٣.

(٢٣) اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية المصطلح في الخطاب النقدي الحديث، فاضل ثامر المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤، ص، ٨٦

(٢٤) نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، وليد محمد مراد دارالفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٣،، ص،٢٨

(٢٥) أسرارالبلاغة: ١٠٢

(٢٦) نظرية النظم، وليد محمد مراد، ص، ١٨٣.

(٢٧) عبد القاهر، الدلائل: ٤١٥

(٢٨) عبد القاهر، الأسرار: ٣. وتغنينا بعض الإشارات إلى الأصول اللغوية لنظرية عبد القاهر في النظم، إذ شكل موضوع اللغة والكلام عنده حضوراً في كثير من الأعمال، ذلك أنه يكشف وجهاً معاصراً في فكره، ينظر على سبيل المثال: عبد القادر المهيري، مساهمة...: ٩٦... حمادي صمود، التفكير البلاغي: ٥٠...

(٢٩) عبد القاهر، الدلائل: ٥٧.

(٣٠) نظرية اللغة والجمال في النقد العربي،د/ تامر سلوم، ص١٣٣

(٣١) المصدر السابق، ١٣٦

(٣٢) [1] الإيضاح – للقزويني – تحقيق وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد – مطبعة السنة المحمدية، ص، ١٢٥

(٣٣) – كتاب الصناعتين – لأبي هلال العسكري – الطبعة الأولى عيسى البابي الحلبي ١٣٧١ – ١٩٥٢

(٣٤) الصناعتين، أبو هلال العسكري، الأستانة، ١٣١٩هـ ، ص، ٣٤٦

(٣٥) دلائل الإعجاز، ص، ١٥٠.

(٣٦) نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، د/تامر سلوم، ص، ١٤٠

(٣٧) أحمد علي دهمان، الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني منهجا و تطبيقا – دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر – دمشق –ط١-١٩٨٦ ،235ً

(٣٨) أحمد علي دهمان، الصورة البلاغية، ص، ٢٥٩

(٣٩) أحمد علي دهمان، *الصورة البلاغية*،453

(٤٠) عبد القاهر الجرجاني، *أسرار البلاغة*، قرأه و علق عليه محمود محمد شاكر (جدة: دار المدني، ١٩٩١)، ٢٧٤

(٤١) ابن الرومي. ديوانه. شرح مجيد الأطرش. المجلد الأول. (بيروت :دار الجيل، ١٩٩٨)، ٣٩٢-٣٩٣

(٤٢) عبد القاهر الجرجاني، *أسرار البلاغة*،274

(٤٣)أحمد علي دهمان، *الصورة البلاغية*،234

**تاريخ أستلام البحث:- ٢٠١٤/١٠/٢٣**
**تاريخ قبول النشر :- ٢٠١١٢/١٢/٢٠**